



تصفية عرقية لعشرة آلاف بريء

مذبحة الجوازي.. أبشع جرائم العثمانيين في ليبيا

بلغ الطغيان العثماني منتهاه في ليبيا واشتد الظلم ووصل الجبروت ذروته، غير أنه هناك من كان قادراً على الوقوف أمام ذلك، وقول كلمة الحق أمام كل ذلك، ففي الوقت الذي ظنّ فيه العثمانيون أنهم تحكّموا في مقادير البلاد والعباد، وأسكتوا الألسنة بالقتل، وأضعفوا الأقوياء بالبطش، وجدوا من يتصدى لهم غير مكترث بالدماء التي تسيل لترسم خريطة للحرية، هذا ما فعلته قبيلة الجوازي الليبية مع الأتراك في ليبيا.

الباحث الليبي رمضان جربوع وصف مدينة بنغازي الليبية بأنها "العصية النافرة"، ووضح أن تلك السمّة التصفت بها منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي، أي بعد نحو قرن من تأسيسها، أو إعادة تأسيسها من قبل جماعة من تجار مصراتة، ولاحقاً تاجوراء وطرابلس، تالفوا وتوافقوا مع سكان المنطقة شبه الصحراوية التي تقع بها بنغازي.

ونتيجة ذلك، ازدهرت بنشاطها التجاري، وصارت مركزاً حضرياً يجمع بين ثقافة الحضر وثقافة البادية، مما شكّل توليفة فريدة، وقد نستطيع تسميتها "الحضر بدوية"، ومن ثمّ لم يكن هنالك حكومة أو ضرائب، ولم تكن المدينة في حاجة لأحد، فقد نبتت بنفسها، وأخذت في الازدهار بتوافق المهاجرين إليها من كافة أجزاء ليبيا من دون استثناء.

احتل العثمانيون المدينة بعد تأسيسها بقرابة 130 سنة، فشيدوا فيها قصرًا للحاكم، وثكنة عسكرية، وأخذوا في جباية الضرائب لصالح السلاطين، ومن هنا تولّد "النفور" وعدم الاستجابة مع "السلطة" القادمة المُحتلّة، رد الفعل هذا دفع باشا طرابلس العثماني إلى إخضاع المدينة بقسوة المعاملة، إلى جانب عدم الاهتمام والإهمال بسبب هذا النفور الذي أصبح متبادلاً بين الطرفين.

قاومت قبيلة الجوازي المحتل العثماني ببسالة ورفضوا دفع الضرائب والخضوع للأتراك

السوط العثماني لم يُخفِ الجميع، هذا ما أثبتته الحوادث، حين رفضت قبيلة الجوازي التعامل مع الاحتلال العثماني، بل رفضت دفع الجزية والضرائب التي فرضها المحتلون الأتراك، وتحملوا في سبيل ذلك مقاومة الإنكشارية بصمود واستبسال.

سكنت قبيلة الجوازي بنغازي وضواحيها (1000-1942)، وهي قبيلة عربية أصيلة يعود نسبها إلى قبيلة بني سليم العربية، وتعرضت لمذبحة أثناء الحرب الأهلية الليبية سنة (1801)، وطُرد من بقي منهم إلى مصر علي يد يوسف باشا القرمانلي، ولم يستقر الجوازي بمصر طويلاً إذ عاد معظمهم إلى برقة بعد أن فقدوا الكثير منهم.

وتشير المصادر إلى أن القبيلة المعتزة بعروبيتها وقوتها، هي من تصدّت للمحتل العثماني، فقادوا الثورة وأوقفوا جرائم المرتزقة ضد السكان المحليين، كما رفضوا استعلاء العرق التركي على الجنس العربي وكانهم عبيد في سخرة يعملون لصالح سلاطين آل عثمان.

لكن لأن المُجرمين لم يرضوا بمن يقول لهم: (لا)، وعلى طريقة محمد علي مع المماليك، دبر الأتراك مذبحة بشعة، بدأت حين دعا الحاكم العسكري التركي القرمانلي، شيوخ الجوازي للحضور إلى القلعة التركية بغرض التفاهم معهم، كما خدعهم بتلبية طلباتهم، فوافق شيوخ الجوازي وأعيانهم، وحسب المصادر فإن القرمانلي كان قد رتب أمره ودبّره، إذ فور دخولهم للقلعة، فوجئوا بالحرس يقوم بذبحهم جميعاً.

وتوضح المصادر التاريخية أن الوالي العثماني كان يسمح بدخول شيخ واحد فقط للجُلوس معه تلو الآخر، وفي كل مرة كان ينادي على أحد الشيوخ ويدخل ولا يعود، حتى وصل النداء إلى الشيخ رقم 45 ولم يدخل إلا بعد أن يعلم مصير من دخلوا قبله، ليتفاجأ أن حراس الوالي العثماني قتلوا كل الشيوخ 44، ثم قتلوه، وبعدها ذبحوا كل المرافقين أمام القصر.

وإمعاناً في الإجرام، فما أن انتهوا من قتل القادة والأعيان، حتى انتشر الإنكشارية ومرترقة المحتل التركي في الشوارع والأحياء، فافتحموا البيوت الآمنة واعترضوا النساء والأطفال والشيوخ قتلاً وذبحاً حتى وصل عدد الضحايا إلى 10 آلاف فرد.

ويصف مركز المزمرة، للدراسات والبحوث، مجازر الاحتلال العثماني في ليبيا، خاصة ما حدث ضد قبيلة الجوازي بولاية برقة شرق ليبيا، بأنها من أبشع مجازر التاريخ، إذ قُتل فيها أكثر من عشرة آلاف فرد من قبيلة واحدة.

رغم ذلك فشل الأتراك في تتركب ليبيا، ويذكر الباحث الليبي جبريل العبيدي أن تركيا احتلت ليبيا كباقي بلاد العرب، وتولت الحُكم فيها لأكثر من 400 عام تحت اسم "الخلافة العثمانية" المزعومة، رغم ذلك بقيت ليبيا للليبيين حتى بعد حرب الخمسين عامًا مع الإيطاليين الذين سلمتهم تركيا ليبيا على طبق اتفاقية أوشي لوزان.

وفي وثيقة خطيّة نشرها موقع قبيلة الجوازي الليبية، بقلم الفقي أحمد الشنقيطي، ذكر فيها واقعة إعدام شيوخ الجوازي غدراً في بنغازي وجاء نصها "بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين. والسلام على من ماتوا مظلومين، أنا الفقي أحمد بن محمد الشنقيطي من بلد شنقيط من المغرب، أكتب ما أملاه عليّ الشيخ صالح المصري شيخ قبائل الجوازي من أسماء الشيوخ الذين أعدموا في قصر الحكومة في مدينة بنغازي يوم الأربعاء في السابع عشر من صفر سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين هجرية، وعددهم خمسة وأربعون، إثر الخديعة والخيانة التي دبرها لهم أحمد يوسف القرمانلي، الذي تظاهر لهم بالرضا وقبلوا الضيافة التي كانت قد أزهقت أرواحهم فيها غدراً، وبعض أسمائهم "موسى بن جبرين بنود - صالح بن علي نوفل - حمد بن مراد مقرب - عوض بن محمود زيدان - الكيلاني بن عمر أبسيوان - صلاح بن حامد أمينسي بويلا - طاهر بن بو بكر الدوزان"

وكعادة الشعوب، فإن الذاكرة الشعبية الليبية احتفظت بقصائد وثقت المذبحة ومنها:

يا قصر مبني العادر أو دم الجوازي ازواقه

نوك تشهد عالدهر التاريخ يحكن اوراقه

مشايخ الجوازي الزينيين كيف القمر في اشراقه

أولاد أصل تفصيلهم زين كيف الذهب في اقداه

جاهم الخبر والدواويين في القصر ختمن اوراقه

(1) وليد فكري، الجريمة العثمانية، ط4 (القاهرة: الرواق للنشر والتوزيع، 2021).

(2) الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس: من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي (بيروت: الفتح للطباعة والنشر، 1970).

(3) رابحة خضير، "دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني (1555م)"، كلية الآداب بجامعة الموصل، المؤتمر العلمي السنوي لكلية التربية الأساسية 23-24 أيار 2007.

(4) مجيد خدوري، ليبيا الحديثة (بيروت: دار الثقافة، 1966).

(5) محمود عامر ومحمد فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى، ليبيا) (دمشق: جامعة دمشق، 1999).